

المحاضرة الثانية

أثر الفرق الكلامية في تأصيل البلاغة

المجاز عند المعتزلة نموذجاً

تمهيد:

حظيت البلاغة العربية باهتمام فئات مختلفة، من لغويين ونحاة وأدباء ونقاد وفلاسفة ومتكلمين، ولا يمكن بحال إقصاء جهودهم العظيمة لتأصيل مباحثها وبلورة مصطلحاتها، ورسم معالمها، ومن الثابت تاريخياً أنّ فئة المتكلمين أكثرها نشاطاً وأعمقها تأثيراً، وأغزرها نتاجاً حيث تفرّدت في معالجة وتفصيل مباحثها، بهذا لا يمكن تجاهل جهودها في نشأة الدرس البلاغي واستقرار مصطلحه ونضج مفهومه. منهم الأشاعرة ومنهم المعتزلة. فما المقصود بعلم الكلام؟

أولاً: تعريف علم الكلام:

هو: « علم يُقْتَدَر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج ودفع الشبه. ويسمى علم أصول الدين، وعلم النظر والاستدلال، وعلم التوحيد والصفات، وسمّاه " أبو حنيفة " الفقه الأكبر ». سَمِّي كذلك؛ لـ « أنّه يورث قدرة على الكلام في الشرعيات، أو لأنّ أبوابه عنونت بالكلام في كذا، أو لأنّ مسألة الكلام أشهر أجزاءه ». والمتكلّمون هم أصحاب الصناعة الكلامية في بحثهم للقرآن الكريم وتدليلهم على إعجازه واستنطاق العقائد منه والدفاع دونه. وقد أخذوا ينقسمون إلى فرق في نهاية القرن الأول الهجري من جبر وإرجاء واختيار، ويتجادلون في مسائل العقيدة.

ثانياً: أثر المعتزلة في تطور درس المجاز:

أولت فرقة المعتزلة عناية فائقة بمسائل البلاغة، لاسيما المجاز حيث راح علماءها يرصدون ألوان المجاز المختلفة في الآيات القرآنية، ويبحثون دلالاته المتنوّعة وبذلك تمّت على أيديهم دراسة

المجاز دراسة علمية انتهت إلى وضع حدوده وقواعده وبيان أساليبه وخواصه، والتمييز بينه وبين الحقيقة. فما مفهوم المعتزلة وما هي أبرز جهودهم؟

1_تعريف المعتزلة: AL Mutazilites

هم « أصحاب " واصل بن عطاء الغزال " لَمَّا اعتزل مجلس " الحسن البصري " يُقَرَّرُ أَنَّ مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ويثبت المنزلة بين المنزلتين، فطرده. فاعتزله وتبعه جماعة سُموا بالمعتزلة. ويسمون أهل العدل والتوحيد، ويُلقَّبون بالقدرية «.

2_ المجاز عند المعتزلة:

الجدير بالذكر، أنَّ المجاز عند المعتزلة كان ذا صلة متينة بمسألتين هامتين من مسائل التوحيد؛ وهما: مسألة صفات الله، ومسألة خلق القرآن. لأجل ذلك، فقد توسَّعوا في استعمال المجاز في النص القرآني بمختلف أنواعه وألوانه وتعمَّقوا في بحث مسأله.

3_أهم جهود المعتزلة في تطور درس المجاز:

لاشكَّ أنَّ محاولة تتبَّع جهود المعتزلة في رسم معالم المجاز البلاغية موضوع واسع ومتشعب لذلك سنعمد إلى عرض أعمال أبرز علمائها، وذلك على النحو الآتي ذكره:

§ جهود أبي عبيدة والفراء :

إنَّ أول كتاب اتخذ المجاز عنواناً له، هو كتاب " مجاز القرآن " لـ " أبي عبيدة "، وهو كتاب يتعرَّض لتأويل آيات كثيرة تأويلاً يتفق في عمومته مع معطيات الفكر الاعتزالي، وإذا كان " أبو عبيدة " قد استخدم مصطلح المجاز بمعنى عام جداً يشمل كلَّ تغيُّر في الأسلوب، فإنَّ معاصره " الفراء " -وله ميول اعتزالية- كان أكثر تحديداً في استخدام المصطلح، وذلك رغم مدخله النحوي

§ جهود الجاحظ :

يعد أول من حدّد مفهوم المجاز باعتباره قسيما للحقيقة، وأدخل في عناصره التشبيه والمثل والاستعارة والكناية والحذف.

§ جهود الرّماني :

استطاع أن يبلور كثيرا من جوانب التأثير النفسي الذي تُحدِثه العبارة المجازية، تلك الآثار التي تعجز العبارة الحقيقية عن التعبير عنها.

§ جهود القاضي عبد الجبّار:

لم ينفصل البحث في المجاز عن تصوّره لطبيعة اللغة وشروط دلالتها، ولقد انتهى إلى جواز وقوع المجاز في الاسم المفرد وفي التركيب معا .

§ جهود الزمخشري:

استمرت جهود المعتزلة تنمو وتزدهر لتبلغ أوج نضجها في القرن السادس الهجري على يد " الزمخشري "؛ حيث إنّه عُني في تفسيره " الكشّاف " ببحث أساليب المجاز عناية بالغة، ويأظهار دقائق دلالاتها وما فيها من لطائف، بهذا فقد استطاع أن يرسم أبعادا متكاملة للمجاز القرآني، فكان بحق رائدا من رواد مرحلة التأصيل لهذا المعلم البلاغي.

__4دوافع دراسة المجاز عند المعتزلة:

ويمكن أن نوجز أهمّ الدوافع الاعتزالية لدراسة المجاز في هذه النقاط:

- الحرص على تثبيت عقيدتهم في التوحيد والتنزيه الإلهي.
- التصدي لحملات الشعوبيين والزنادقة على القرآن، بالطعن في ألفاظه ومعانيه.
- الاهتمام بالجدل الكلامي والمناظرات والاعتماد على العقل ودراسة اللغة.

خاتمة: إنّ البلاغة العربية نمت ونضجت في بيئة المتكلمين عامة وبيئة المعتزلة خاصة، وذلك بالنظر لارتباطها بقضية الإعجاز القرآني، كما أنّها من أنجع وسائل الإقناع والمناظرة والحجاج، ومؤلفاتهم البلاغية شاهدة على أثرهم الكبير في تطور مسائلها واستقرار مفاهيمها. ويعد المجاز من

أبرز دعائم المنهج الاعتزالي، من هنا حظي بمكانة عالية في بحوثهم، الأمر الذي أسهم بصورة كبيرة في إرساء قواعده ورسم معالمه.